صيغة التعريف والتعسف في استعمال المنظور السردي: قراءة في ومضة "الهدية" لحنان الجاي

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر؛ جامعة طيبة، المدينة المنورة

الهدية

في عيد ميلادها ال ... أهدى الزوج الشاب زوجته الثرية ساعة سويسرية ثمينة, لتبدأ بها رحلة العد التنازلي.

أول ما يلفت انتباهنا في ومضة "الهدية" للكاتبة المغربية حنان الجاي عنوانها الذي يجيء بصيغة التعريف بالألف واللام، وهي صيغة نبهنا كثيرا في سنا الومضة القصصية إلى مخاطر استعمالها في العنوان وفي النص عندما يتم ذكر الاسم لأول مرة. فصيغة التعريف بالألف واللام في العنوان تفرض دلالة التعريف على هذا العنوان وتضيّق دلالة النص ذاته بأن تجعل أفقه محدودا وتجعله يشير إلى شيء محدد بعيدا عن الإطار الفني أو إلى التعميم المفرط وكأن كل الهدايا في حياة البشر مثل هذه الهدية الواردة في العنوان وفي النص. أي أنها تجعل دلالة النص وقائعية، بمعنى أن النص يشير إلى واقعة محددة في العالم الواقعي أو المتخيل بعيدا عن لغة الفن الإيحائية التي تفتح آفاق الدلالة والتأويل.

ولو كان النص مرويا بضمير المتكلم، قد نتقبل صيغة التعريف بهذه الطريقة لأن الراوي يكون مشاركا في الحدث أو صانعا له، ولأن ضمير المتكلم يضعنا في إطار نسبية التجربة السردية، بمعنى أن ما يرد في النص يمثل وجهة نظر خاصة وتجربة محددة مروية من منظور داخلي بحكم أن الراوي داخل العالم المنقول منه الحدث وبحكم أن وجوده دخله يفرض حدودا في الرؤية. وفي هذه الحالة سندرك أن التعريف ليس تعريفا مطلقا، وإنما هو تعريف بالنسبة للراوي المشارك: أي أن مشاركة الراوي في الحدث تجعل الشيء معرَّفًا بالنسبة له، ونحن نراه بعين هذا الراوي، وبالتالي يصير تعريفا نسبيا ولا يدل على تعميم.

تبدأ الومضة بداية زمنية غير محددة وهي بداية مقصودة في الغالب إما لأن الراوي غير المشارك لا يعرف رقم عيد ميلاد الزوجة بالفعل أو أنه يريد أن يوحي بعمرها الطويل. وكون البداية زمنية يجعلنا نلتفت لدلالة الزمن وآثاره في الومضة.

بعد هذه البداية الزمنية، يبدأ نص الومضة الأساسي. وتقوم الراوية بإدخال طرفي الحدث، وتستعمل هنا صيغة التعريف بالألف واللام أيضا بالإشارة إلى الزوج، في حين أن ضمير الغائب المؤنث المفرد في "ميلادها" كفيل بأن يجعل تعريف الزج هنا من خلال هذا الضمير: أهداها زوجها الشاب، لأن الترابط الدلالي والمفاهيمي والنحوي بين عناصر النص يقتضي

استعمال ضمير الغائب هنا، وإلا لن يكون هناك مبرر للبداية الزمنية واستعمال الضمير فيها. كما أن وصف الزوجة بالثرية ووصف الساعة بالثمينة يكافئان بعضهما بعضا، الأمر الذي يجعلنا ننظر إلى الهدية على أنها هدية عادية، لأن غلو ثمن الهدية يتناسب هنا مع مقام الشخصية المهداة الساعة لها.

ووصف الزوج بالشباب يبني دلالته على رقم عيد ميلاد الزوجة الذي لم يتم تحديده، ويوحي بأن هذا الزوج لا يحب زوجته وإنما تزوجها بسبب ثرائها. ولذلك تصير الهدية التي أهداها لها ليست هدية وإنما شيئا اشتراه من مالها ليعطيه لها، فمن الملاحظ أن ثراء هذه الزوج نتيجة من نتائج زواجه بها، ولذلك ليس لثراء هذا الزوج وجود بعيدا عن وجوده مع زوجته.

وعندما ننتقل إلى الجزء الأخير من الومضة، نجده يبدأ بلام التعليل التي تفسر سبب إعطاء الزوج هذه الساعة الثمينة لزوجته. وهذا الجزء مروي من منظور داخلي على الزوج، والزوج لا يبدأ العد التنازلي، وإنما الزوجة هي من تقوم بذلك أو تحس بذلك، ولذلك لا مبرر لاستعمال هذا المنظور، فهو مفروض من الراوية على الومضة وعلى الزوجة. فلا يملك الزوج أن يقرر أن تبدأ الزوجة رحلة العد التنازلي. يمكن للزوجة أن تدرك أن مغزى الهدية يمثل لها رحلة العد التنازلي، ولذلك لا يمكن إيراد منظور داخلي هنا إلا من خلال تسليط الضوء على نفسية الزوجة. ولو أخذنا لام

التعليل على أنها حقيقية، سندرك أن هذا الزوج زوج منافق وسندرك أنه ينوي الزواج من أخرى أكثر شبابا، وسنستنبط أن زوجته الحالية – التي تمتلك الثروة – ستطرده من مجال التمتع بثروتها.

استعمال المنظور الداخلي هنا على الزوج استعمال لا يناسب سياق الومضة، فهذا السياق ودلالة المنظور يتعلقان بالزوجة وحدها. وعندما تستعمله الراوية بالإشارة إلى الزوج يصير هذا المنظور مفروضا على الومضة وتستعمله الراوية لتوصيل فكرة مباشرة ليست لها علاقة بالحدث في حد ذاته، الأمر الذي يدل على استبداد الراوية، وهو استبداد قمتُ بالإشارة إليه بشيء من التفصيل عند تناولي لومضة "أنفة" لأميمة العزيز وتناولتُه أيضا بالإشارة إلى ومضة "حرية" لرسول يحيى، وسأتناوله بالتفصيل في مقالة مستقلة لأن هذه الظاهرة منتشرة لدى الكثيرين من الكتّاب العرب في ومضاتهم المروية بضمير الغائب. فالومضات المروية بضمير الغائب تفترض عدم مشاركة الراوي في الحدث وعدم مشاركته منظوريا في الومضة، فدوره يتمثل في كونه مجرد صوت يروي الومضة من منظور خارجي، وإذا استعمل منظورا داخليا، فلابد أن يكون هذا المنظور الداخلي مسلَّطًا على شخصية من الشخصيات، وكأننا نرى الحدث بعيون هذه الشخصية. وعندما يفرض الراوي منظوره على الشخصية أو يقوم باستخدام منظور داخلي في غير محله، أو يسلطه على شخصية لا يحق لها أن تنظر

إلى الحدث هكذا – عندما يحدث ذلك، يمارس الراوي استبداده، وهو استبداد يقترن بنوع من التوحُّد المَرَضِي الذي يوحي بفشل الراوي في التواصل مع الحدث وفقا لمنطقه الخاص، ويعزل نفسه عنه ويراه بعيون ليست في محلها.